

## جدلية الحكاية والعنف في ألف ليلة وليلة

هالة مهدي الجموسي  
تونس

### المقدمة: الإنسان والعنف أو العنف الإنساني

العنف مسألة قديمة متعددة في الفكر الإنساني، وقد اتخذ أشكالاً متعددة بدءاً من أول معركة بشرية ورد ذكرها في الكتب المقدسة. فقد ورد في الكتاب أنّ قابيل كان عاملًا بالأرض أما هابيل فكان راعيًّا للغنم، وفي يوم قررا أن يعبدوا الله فقدموا قرابين. يقول الكتاب: "وَحَدَثَ بَعْدَ أَيَّامٍ أَنْ قَابِيلَ قَدَمَ مِنْ أَثْمَارِ الْأَرْضِ قُرْبَانًا لِلَّهِ، وَقَدْ هَابِيلَ أَيْضًا مِنْ أَبْكَارِ غَنْمِهِ مِنْ سَعْنَاهَا، فَنَظَرَ الرَّبُّ إِلَى هَابِيلَ وَقُرْبَانِهِ، وَلَكِنَّ إِلَى قَابِيلَ وَقُرْبَانِهِ لَمْ يَنْظُرْ، فَاغْتَاطَ قَابِيلَ جَدًّا وَسَقَطَ وَجْهُهُ<sup>(1)</sup>، وَلَمْ يَنْظُرْ الرَّبُّ إِلَى قُرْبَانِ قَابِيلَ لِأَنَّهُ كَانَ مُخَالِفًا لِمَا كَانَ يَتَطَلَّبُهُ وَهُوَ الذِّيْجَةُ الدَّمْوِيَّةُ أَمَّا هَابِيلَ فَقَدْ فَعَلَ. يَقُولُ الْكِتَابُ: بِالإِيمَانِ قَدَمَ هَابِيلَ اللَّهُ ذِيْجَةً أَفْضَلَ مِنْ قَابِيلَ. فِيهِ شَهِيدٌ لَهُ أَنَّهُ بَارُّ إِذْ شَهَدَ اللَّهُ لِقَرَابِينِهِ<sup>(2)</sup>، حِيثُ قَابِيلَ ادْعَى إِيمَانَهُ بِالرَّبِّ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْعُلْ. لَمْ يَقْبِلْ الرَّبُّ قُرْبَانَ قَابِيلَ فَاغْتَاطَ قَابِيلَ جَدًّا وَسَقَطَ وَجْهُهُ<sup>(3)</sup>. فَقَامَ عَلَى أَخِيهِ هَابِيلَ فِي الْحَقْلِ وَقَتَلَهُ، فَقَالَ الرَّبُّ: قَابِيلَ أَيْنَ هَابِيلُ أَخْوكُ؟ فَقَالَ لَا أَعْلَمُ، أَهَارَسَ أَنَا لَأْخِي. فَقَالَ: مَاذَا فَعَلْتَ؟ صَوْتُ دَمِ أَخِيكَ صَارَخَ مِنَ الْأَرْضِ. فَالآنَ، مَلُونَ أَنْتَ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي فَتَحْتَ فَاهَا لَتَقْبِلَ دَمَ أَخِيكَ مِنْ يَدِكَ. مَتَى عَمِلْتَ الْأَرْضَ لَا تَعُودُ تَعْطِيكَ قُوَّتَهَا. تَائِهًا وَهَارِبًا تَكُونُ فِي الْأَرْضِ<sup>(4)</sup>.

أَمَا فِي الْقُرْآنِ فَقَدْ وَرَدَتْ قَصَّةُ قَابِيلَ وَهَابِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَاتَّلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَبَا قُرْبَانًا فَقُتِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يَتَقْبِلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتَلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقْبِلُ اللَّهُ

مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتِلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لَا قُتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ  
الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُبْوَأْ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ  
الظَّالَمِينَ فَطَوَّعْتُ لَهُ نَفْسَهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعْثَ اللَّهُ عَرَبَابًا يَبْعَثُ  
فِي الْأَرْضِ لِيُرِيهِ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَنَا أَجَبَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ  
فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَنِّي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِيِنَ (5).

ومن هذه القصة توالت القصص التي صورت العنف وذلك في الكتب الدينية والتاريخية والسياسية والاجتماعية وحتى الشعبية، فصار العنف يتخذ صوراً مختلفة ومبررات متعددة، بعضها ديني وبعضها أخلاقي وبعضها سياسي وبعضها مرضي... والعنف يصبح في الظاهر الأشد قوة على الأقل قوة، لكنه في الواقع ناجح عن ضعف الحجة العقلية عند مواجهة الأمور التي تظهر معقدة للقيام بها.

فالعنف من هذا المنظور ظاهرة ملازمة للحياة الإنسانية، ولها تاريخ كا للإنسان تاريخ. وتظهر أشكال متعددة ومتعددة للعنف في السلوك الإنساني يصعب إرجاعها -من أجل فهمها- إلى عامل واحد، وذلك بالنظر إلى اختلاف مكوناتها وشروط حدوثها، وتنوع الآثار الناجمة عنها من مستوى إلى آخر. وسنحاول في هذا المقال أن نبحث في جدلية الحكاية والعنف في كتاب ألف ليلة وليلة من خلال المحاور التالية.

### 1- الموت العنيف في ألف ليلة وليلة: نظرة تأويلية:

بالنظر إلى إشكالية العنف في النصوص الأدبية، فإننا نراها مجسدة في أغلب النصوص إن لم نقل كلها قد يها وحدتها. فالعقيدة والشخصيات المعرقلة والأزمة كلها يمكن تأويلها على أنها تصوير لعنف خارجي مسلط على الشخصية. وفي ألف ليلة وليلة يعتبر العنف هو المحرك الأساسي لعملية الحكي، فببدأ كل ليلة، كان ينتهي بالفعل العنيف -

القتل - لكل عذراء تسوقها الأقدار إلى بلاط شهريار الملك الواقع تحت هيمنة هاجس "الخيانة الزوجية"، ولعل شهرزاد هي الوحيدة التي أرجأت فعل "العنف" -أي القتل-، متبعة مبدأ شهريار في ألف ليلة وليلة، هو: احك حكایة والا قتلىك.

وبالعوده إلى سبب العنف/القتل الذي اتهجه الملك شهريار فإننا يمكن أن نلخصه في "الخيانة الزوجية". يقول المؤلف بعد أن تحدث عن خيانة الزوجة للملك شهريار وخيانة الزوجة للملك شاه زمان وخيانة الصبية للعفريت: "وصار الملك شهريار كلما يأخذ بنتاً يكرأ يزيل بكارتها ويقتلها من ليلتها ولم يزل على ذلك مدة ثلاث سنوات فضجت الناس وهربت بيناتها ولم يبق في تلك المدينة بنت تحمل الوطء. ثم إن الملك أمر الوزير أن يأتيه بنت على جري عادته خرجم الوزير وقتلش فلم يجد بنتاً فتوجه إلى منزله وهو غضبان مقهور خايف على نفسه من الملك"<sup>(6)</sup>.

من هنا تصبح الخيانة هاجساً مؤرقاً يشّع ممارسة العنف في أشدّ مظاهره وهو القتل. صار بموجبه الملك يتزوج كلّ ليلة ثمّ يقتل زوجته في الليلة نفسها خيفة أن تخونه على أساس أنّ الخيانة متصلة في المرأة حسب رأيه. فسوء النية صار مشرّعاً للعنف سواء في ذلك المرأة الخائنة والمرأة العفيفة. فإذا كانت زوجته الأولى خائنة وزوجة أخيه خائنة وحتى العفريت لم يسلم من الخيانة، فالنساء صرن سواسية من وجهة نظر شهريار مما يستوجب قتلهن قبل أن تتعنّ في فعل الخيانة.

نستنتج إذن أنّ العنف في قصة شهريار مع النساء صار عقدة نفسية جعلت من الملك المغدور سفاحاً دون أن يطاله العقاب فهو الحكم والجلاد في نفس الوقت وهنا مكمن الخطأ، فالسلطة صارت تشرع القتل دون أن تأخذ بعين الاعتبار قاعدة أنّ الشاذّ

يُحفظ ولا يُقاس عليه من ناحية، وأن الخيانة يمكن ألا يكون عقابها القتل بل عقابا آخر يكون مساويا لل فعل.

2- شهرزاد والعنف المؤجل: شهرزاد - ابنة الوزير- امرأة ليست ككل النساء، أبت إلا أن تجد منفذا للورطة - ورطة الموت العنيف- للحد من جنون الملك. فهي وجدت المخرج من هذا الموت بتأجيله إلى حين عن طريق إيجاد نقطة ضعف الملك التي ستجعله يختار تأجيل القتل ليلة وليلة ثم ألف ليلة وليلة. وصفاتها هي التي خولت لها ذلك. يقول الكاتب: "وكان الوزير له بنتان ذاتا حسن وجمال وبهاء وقد واعتدال الكبيرة اسمها شهرزاد والصغيرة اسمها دنيازاد وكانت الكبيرة قد قرأت الكتب والتاريخ وسير الملوك المتقدمين وأخبار الأمم الماضيين. قيل أنها جمعت ألف كتاب من كتب التاريخ المتعلقة بالأمم السالفة والملوك الحالية والشعراء"<sup>(7)</sup>. تحولت صورة المرأة هنا من مجرد كونها صورة خارجية ترمز إلى الجمال الجسدي ليصبح رمزا للثقافة والعلم والقدرة على الجدال، فاكتسبت قوة من صفاتها تضاهي قوة السلطة. ورغم محاولات والدها الوزير ردعها عن قرارها بالزواج من الملك خوفا عليها من أن يقتلها كما فعل مع الآخريات، إلا أنها أبت إلا أن تخوض معركة الزواج العنيف سلاحها في ذلك العلم لا الجسد إذ ظهر بالكافش أن سلطة الجسد سرعان ما تهاوت أمام سلطة الملك وجبروته نظرا لفقدانه الثقة في جنس النساء قائلة لأبيها: ""فإما أن أعيش وإما أن أموت فداء لبنات المسلمين وسببا لخلاصهن من بين يديه... لا بد من ذلك..."<sup>(8)</sup> مستعينة بأختها الصغرى التي ستكون القادحة لإشعال نار الحكايات حين طلبها لتودعها حسب زعمها: "بِاللَّهِ عَلَيْكِ يَا أُخْتِي حَدَّثَنَا حَدِيثًا نَقْطَعَ بِهِ سَهْرُ لِيلَتَنَا فَقَالَتْ - أَيْ شَهْرَزَادَ - حَبَّا وَكَرَامَةً إِنْ أَذْنَ الْمَلَكُ الْمَهْذَبَ، فَلَمَّا سَمِعْ ذَلِكَ الْكَلَامَ وَكَانَ بِهِ قَلْقٌ فَفَرَحَ بِسَمَاعِ الْحَدِيثِ"<sup>(9)</sup>. ولسائل أن يسأل ما السر وراء قلق الملك وبين يديه زوجة جديدة كل

ليلة؟ أتراء السّأم من الزواج أم السّأم من القتل أم السّأم من الحياة التي أصبحت مملةً يتكرّر فيها نفس الحدث - العنف - بطريقة صارت تبعث على النفور؟

قادح الحكاية إذن هو حادث جديد سيتسبب في إزاحة هذا القلق الذي لازم الملك منذ قراره قتل كلّ من سيتزوجها منذ الليلة الأولى بعد قضاء حاجته منها. فالحكاية ستوقف نزيف الدماء والحكاية ستثار جميع النساء والحكاية ستغيّر موقف الملك من جميع النساء. وبين حكاية التاجر مع العفريت التي بدأت بها شهرزاد في الليلة الأولى والتي امتدّت ليتين، وحكاية معروفة الاسكافيّة التي ختمت بها شهرزاد حكاياتها طيلة ألف ليلة وليلة سواتر الحكايات فتبدأ "الليلي" جيّعها بالعبارة الخالدة والمكررة: "قالت بلغني أيّها الملك السعيد" وتنتهي بعبارة: "وأدرك شهرزاد الصباح فسكت عن الكلام المباح"، وفي هذه المساحة النصيّة تتشكل القصص بين العبارتين فيمتزج فيها السحر بالخرافة والأسطورة بالحكاية الشعبية والجنس بالحب. ولا تكمل شهرزاد الحكاية في نفس الليلة - لأنّها إن فعلت ذلك يزول القلق من نفسية الملك فيقرر قتلها كما فعل مع غيرها - بل تعمد إلى إنتهاء كلّ قصة في منتصف الليلة وتبدأ مباشرة في نفسها الثاني بقصة أخرى لا تنهيها لتجعل الملك متشوّقاً لأحداثها. وتواصل شهرزاد الحكي مدة ألف ليلة وليلة أنجبت خلاها من الملك ثلاثة ذكور لتنهي بذلك عاصفة العنف بعفو الملك عنها وتوبيه عن قتل النساء ليقينه بعفاف شهرزاد ونقائها وطهرها وبأنّ موجب القتل - وهو الخيانة - غير متصل في الذات البشرية وأنّ ما ينطبق على هذه لا ينطبق على الأخرى.

3- سلطة الحكاية الليلية: كلّ الحكايات تُسرد ليلاً، فلليل سلطة تصاهي سلطة الحكاية. فالنهار لإدارة الشؤون والعمل للآخر أمّا الليل فهو لشئون النفس أو "الأنّا" من سهر وسفر وجنس وحكايات (مرتبة)، ولو سردت شهرزاد قصصها نهاراً فتّما كان سيقتلها الملك من

اليوم الأول فهي من ناحية ستلهيه عن إدارة شؤون الدولة، ومن ناحية ثانية لن يكون هناك مخدر النوم الذي سيوقف عملية القص وسيؤجل الاستماع لبقية كلّ قصة بل سيرجئ الموت لوقت لاحق. فاختيار الليل للقص هو اختيار ذكي وليس اختياراً اعتباطياً فالحكايات اكتسبت سلطتها من الزّمن الذي فيه شُكّلت ونُسجت والذى يتواصل إلى حدود الفجر في جملة تتواءر بعد كلّ ليلة "وأدرك شهرزاد الصباح فسكت عن الكلام المباح". وهذا الكلام سيقى مباحاً إلى حين اكتمال القصص فيقرر الملك بعده العفو لا عن شهرزاد فقط التي أصبحت أمّا لأولاده، بل وأيضاً عن جميع البنات فتتغير نظرته إليهنّ ويندم عن قرار العنف الذي اتخذه في شأنهنّ ويتبّع عن صنيعه فيعلن المدنة والسلام.

### خاتمة:

إنّ الكون الحكائيّ العجيب والغريب في هذه النصوص الليلية في كتاب ألف ليلة وليلة بما يحويه من أماكنة وأزمنة وأحداث متشعبّة ومتواترة، وبما يضمّه من خرافات وسحر وشعوذة وحبّ وعشق وجنس وغدر ووفاء وشدة وفرج، وبما يبرزه من ثقافات إسلامية وعربية وفارسية وهندية وسريانية وتركية... كلّ هذا الكون البنيّ الذي نسجته شخصيّة شهرزاد قد حقّق للقارئ المتعة، متعة القراءة والتشوّق والتعرّف والاكتشاف، وحقّق للشخصيّة الرئيسيّة -أي شهرزاد- الخلاص من الموت، فالعالم المتخيّل فاقت سلطته سلطة العالم الواقعي مجسدة في بطش الملك بقراره قتل جميع النساء الالاتي تزوّجهنّ في نفس ليلة الزواج بعد إشباع رغباته الحسّية، فكانت الحكاية هي السلطة الأقوى التي أزاحت قلق الملك من جهة وأجلت موته شهرزاد في مرحلة أولى إلى أن ألغته جملة وتفصيلاً في مرحلة ثانية من جهة ثانية.

- 
- 1- سفر التكوبن 5.-3:4
  - 2- سفر التكوبن 4:11
  - 3- سفر التكوبن 5:4
  - 4- سفر التكوبن 12-9:4
  - 5- القرآن الكريم الآيات 27-31
  - 6- ألف ليلة وليلة، المكتبة الثقافية، بيروت/لبنان، 1997، ص 10.
  - 7- ألف ليلة وليلة، ج 1، ص 10.
  - 8- نفسه، ص ص 12./13.
  - 9- نفسه، ص 13
- 

### صدر حديثا



صدر حديثاً

